الكتب المدرسية

تبعد المدرسة المصرية عن الحياة

بقلم الأستاذ سيد قطب

يقضي التلميذ فى مصر نحو خمسة عشر عاما متنقلا فى المدارس ، حتى يتم دراسته المعتادة ، تبتدئ عادة من السابعة إلى الواحدة والعشرين ، وقد تصل إلى الخامسة والعشرين .

وهذه المدة الطويلة تعد تضحية كبيرة من العمر ، إذا نحن فصلنا بين حياة المدرسة وحياة المجتمع ، كما هى الحال عندنا اليوم ، وكما كانت فى أوروبا قبل ظهور المذاهب الحديثة فى التربية والتعليم . تلك المذاهب التى نجد فى أنفسنا الشجاعة الكافية للأخذ بها ، إما لأن فيها جديدا خارجا على ما ألفه واضعو برامج التعليم فى مصر فهم لا يميلون إليه ، وإما لأنه يتطلب نفقات مالية لانحب أن نضحى بها ولو كانت ثمرتها أثمن من كل ثروة مادية ، وإما لأننا لم نستعد للاستفادة منها بالأساتذة المدربين عليها ، والذين سنكل إليهم تنفيذها ، وإما لهذه الأسباب جميعا .

وعلى أية حال فإن عجزنا عن الأخذ بهذه الطرق الحديثة ، يجوز أن يقعد بنا عن تعديل خططنا وكتبنا الدراسية بحيث نبعد بها ما استطعنا عن قاعدة الفصل بين المدرسة والحياة . هذه القاعدة التى تضيع على الطالب عندنا نحو خمسة عشر عاما من سنى الحياة القصيرة .

ومن أشهر الطرق الحديثة للوصل بين المدرسة والحياة الحقيقية " طريقة المشروع " وهى كما يفهم من اسمها ، تعتمد على خلق " مشروع " معين ، مماثل للمشروعات العامة فى الحياة الواقعة ، تقوم الدراسة وتلقين المعلومات على أساسه .

وليكن " المشروع " مثلا إنشاء منزل يقوم به التلاميذ بمساعدة الأساتذة . ثم لننظر نوع المعلومات التى يمكنهم أن يفيدوها من هذا المشروع .

إنهم سيعرفون الأطوال والمسافات عند اختيار القطعة ، وسيزيدون عليها معرفة الجهات الأصلية والفرعية عند تخطيطها ؛ ثم يعرفون شيئا عن الهندسة المعمارية والرسم عند تصميم المنزل ، وأشياء عن فن البناء ومواده وشيئا من النجارة والحدادة ، وسيحسبون التكاليف والنفقات

فيتعلمون الحساب العملى ، وقد ينشئون حديقة للنزل فيضطرون لمعرفة أسماء كثير من النبات وخصائصه ومزاياه وحياته ، وإلى تربية بعض الحيوان والطيور فيدرسونه ويعرفون طبائعه وتغذيته وفوائده .

ويتعلمون فى أثناء هذا كله شيئا عن الضوء والأشعة والتقلبات الجوية واتجاهات الرياح ... الخ .

ويخرجون من "المشروع" بعد هذا بثروة علمية متنوعة درسوها دراسة عملية، لاتختلف كثيرا عما سيقع لهم فى الحياة .

وفضلا على امتياز هذه الطريقة من الوجهتين السيكلوجية والتربيية ، فإنها تعتبر كسبا لسنى الدراسة ، التى تصبح قطعة من الحياة العملية ، ومهدة لها .

ونحن لا نطمع أن تطفر العقلية التعليمية عندنا إلى هذا المستوى فى سنوات قليلة ، فلنعمل على الأقل على أن نخلق الصلة بين المعلومات التى نلقنها للتلاميذ وبين ما سيصادفهم فى الحياة بعد ذلك ، وأن نجعل كل ما نلق إليهم من المعلومات مفهوما منهم تمام الفهم .

وإن الانسان ليقف موقف المتعجب أمام بعض النصوص التى نلقنها للتلاميذ، لبعدها عن كل معقول تارة ، أو لبعدها عن أفهامهم تارة أخرى .

فحين نكلف التلميذ حل المسائل المعروفة باسم "مسائل الحنفيات والأحواض" فنقول له مثلا : "حنفية تملأ حوضا فى ثلاث ساعات ، وبالوعة تفرغه فى أربع ساعات ، فتحت الحنفية والبالوعة فى آن واحد ، فبعد كم ساعة يمتلئ الحوض؟" ثم نتفنن فى أوضاع هذه المسائل ونعقد فى أشكالها ، فإننا نضرب للتلميذ مثلا لا يمكن أن يقع إلا فى "مستشفى المجاذيب" . وأقل ما تؤذيه به من هذه المسائل أن تعرض على ذهنه صورة من صور العبث الذى لاطائل تحته ، والذى لا يقع عادة فى الحياة ، وأن تبعد به عن الجو العملى الذى يجب أن تكون المدرسة ممهدة له .

ولا يبعد عن هذا كثيرا نوع مسائل " الأطوال والمكاييل والموازين " فى صياغتها وبعدها عن الوسط المصرى وما يقع عادة فى وسائل المواصلات وفى البيع والتجارة .

وحين نقول للتلميذ فى قواعد اللغة العربية : " صيغة منتهى الجموع " فإننا لا نستطيع أن نفسرها له ، فما معنى صيغة منتهى الجموع هذه ؟

إذا كان الغرض أن هذه الصيغ لا تقبل الجمع فى صيغة أخرى فهذه ليست خاصة لها ، وإلا فكيف نجمع " أقلام ، وكتب ، وشئون " جمعا آخر ؟

وإن كان الغرض أن هذه الصيغ آخر صور الجمع لمفرداتها ، فما هى الصور السابقة لها ؟ وهل هناك جمع آخر لكلمة "مصباح" غير "مصابيح" التى هى صيغة منتهى الجموع ؟ ولماذا نلقى مثل هذا الاصطلاح غامضا فى أذهان التلاميذ ؟

وشبيه بهذا أن الاسم " ممنوع من الصرف " فما هو الصرف فى ذهن التلميذ الصغير ، ولماذا لا يكون هذا الاسم " ممنوعا من التنوين " ؟

والفعل المضارع . مامعنى " مضارع " هذه ؟ إن التلميذ يفهم " الماضى " لأنه يدل على وقوع الفعل فى زمن ماض ويفهم فعل الأمر ، لأنه يطلب به وقوع الفعل أى الأمر ، أما المضارع فلا مدلول له فى ذهنه من معنى لفظه . فلم لا يقال عنه : فعل الحال أو الاستقبال ؟

إن تعويدنا التلميذ أن يتلقى معلومات غامضة لا مدلول لها فى ذهنه ، يجعل هذا الذهن غامضا فى تصوره وتعبيره ، وهذا أشد عيوب الذهن الإنسانى ، فيجب أن نناى به عن هذا الشر من حيث نريد له الخير .

* * *

وبعد فنحن نشكو تعطل المتعلمين ، وأكبر أسباب التعطل عدم استعدادهم لمواجهة الحياة العملية . بينما نضع بأيدينا وكتبنا المدرسية بذور هذا التعطل ، بمباعدتنا بين المدرسة والمجتمع فى كل شىء .

وليست الأمثلة التى أشرت إليها فى كتب الحساب والنحو إلا طرفا لعيب شامل لكل كتب الدراسة وطرائقها وللجو المدرسى كله ، الذى يبذل همه فى البعد عن جو الحياة العاملة .

وهذه مسألة اجتماعية لا مدرسية فحسب . لهذا يجب أن ننظر إلى أثر كل كلمة وكل جملة وكل منهاج فى عقلية التلميذ وفى خلقه ، وفى استعداده لمواجهة الحياة . وأن نجعل ما يدرس فى المدرسة شبيها بما يواجهه فى المجتمع . وألا نستهين بعهد الدراسة ، فهو فضلا على طوله واقتطاعه جزءا مهما من الحياة ، يعتبر أساسا لما يليه من العمر أى أنه هو الحياة !

سيد قطب